الطفولة في حياة المعصوم ﷺ

تأليف الفقير لعفو ربه
خالد بن عبد الرحمن الشايع

مصدر هذه المادة:



دار بلنسية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فلم تزل سيرة نبينا محمد ﷺ محلا لعناية أمة الإسلام جيلا بعد جيل، وقرنا بعد آخر، كما أنها لم تزل موردا عذبا ومعينا صافيا لاستلهام الدروس والعبر في مختلف المجالات: عقيدة وشريعة ومنهجا وتربية وسلوكا، وكان من عناية العلماء بها ما هو معلوم ومشهود بما لا يشابه هذه السيرة سيرة أحد من الخلق على الإطلاق.

وفي هذا السياق أقدم هذه المقتطفات من بيت النبوة بما يظهر جوانب معينة من سيرة المعصوم ﷺ مما يتصل ببيت النبوة الوارف.

وفي هذه المجموعة التي بين يديك اقتطفت أربع مجموعات من كتابي الكبير "بيت النبوة" ونظمتها في هذه المجموعات الأربع:

١- الطفولة في حياة المعصوم ﷺ .

٢- لمحات من حياة النبي ﷺ مع بناته.

٣- لمحات من الحياة البيتية للنبي ﷺ .

٤- لمحات من زواج المصطفى ﷺ بأمهات المؤمنين.

وإني لأسأل الله تعالى أن ينفع بهذه المجموعة، وأن يجعلـــها في ميزان حسناتي وحسنات والدي، وأسأله سبحانه أن يجعلها مدنيـــة من مرضاته وسببا لدخول جناته. آمين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

خالد بن عبد الرحمن الشايع

K_shaya4@maktoob.com

تحريرا في ١٤٢٢/٦/٢٠هـ

الرياض ١١٥٧٤

ص.ب/ ٥٧٢٤٢

* * *

صفحات من طفولة المعصوم ﷺ

عندما نتوقف للبحث في طفولة المصطفى ﷺ ، وبرغم قلة ما تم تدوينه ورصده بشأنها، مقارنة بمراحل حياته الأخرى، فإننا نجد أن هذه الطفولة قد امتزجت فيها صفحات من الابتلاء والأحزان والآلام بسبب فقد الأحبة، ولكن كان لهذا الإنسان الذي فقد أقرب نفسين إليه: والديه في وقت مبكر من حياته، كان له من العناية الربانية والحفظ الإلهي والإرهاصات ما يبين عظم شأن هذا القادم الجديد.... جنينا .... ثم طفلا، وما قبل ذلك وما بعده، وقد قال الله تعالى له: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (١) أي: "بمرأى منا، وتحت كلاءَتنا، والله يعصمك من الناس" (٢)، فقد كان الله تعالى يهيئه للرسالة الخاتمة والتي سيحمل لواءها ويتولى بلاغها.

بشارة الأنبياء ببعثة أفضلهم:

قال الله تعالى مخبرا عما دعا به رسوله موسى عليه السلام: **﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآَخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آَمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ**

(١) سورة الطور، الآية: ٤٨.
(٢) "تفسير ابن كثير" (٤٣٨/٧) ط دار طيبة.

وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: هذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء، بشروا أممهم ببعثه، وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم.اهـ(٢).

وقال الله جل وعلا: **﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾** (٣).

فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملأ بني إسرائيل مبشرا بمحمد، وهو أحمد، خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي لا رسالة بعده ولا نبوة.

روى الإمام أحمد وغيره عن العرباض بن سارية السلمي ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **إني عبد الله في أم الكتاب لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل** (٤) **في طينته، وسأنبئكم بتأويل ذلك: دعوة أبي إبراهيم** (٥)**، وبشارة عيسى**

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٥٦ ، ١٥٧.

(٢) "تفسير ابن كثير" (٣/٤٨٣).

(٣) سورة الصف، الآية: ٦.

(٤) المراد بالمنجدل: الطريح الملقى على الأرض، قبل نفخ الروح فيه.

(٥) أشار بذلك إلى دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام، كما قص الله في كتابه عن إبراهيم وإسماعيل أنهما قالا عند بناء البيت الذي بمكة: **﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ**
=

قومه [1]، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام [2]، وكذلك ترى أمهات النبيين صلوات الله عليهم»[3].

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: "المقصود من هذا الحديث أن نبوة النبي ﷺ كانت مذكورة معروفة من قبل أن يخلقه الله ويخرجه إلى دار الدنيا حيا، وأن ذلك كان مكتوبا في أم الكتاب من قبل نفخ الروح في آدم عليه السلام، وفسر "أم الكتاب" باللوح المحفوظ، وبالذكر، في قوله تعالى: ﴿**يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ [4]" اهـ [5].

= **وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [سورة البقرة: ١٢٧ - ١٢٩]، ولهذا امتن الله على المؤمنين ببعث هذا النبي فيهم على هذه الصفة التي دعا بها إبراهيم وإسماعيل، قال الله تعالى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ [آل عمران: ١٦٤].

(١) وهي قول عيسى لقومه كما في آية سورة الصف المتقدمة، الآية: ٦.

(٢) هذا يحتمل أحد معنيين: إما الرؤية المنامية، وقد روي بكثرة أن آمنة بنت وهب رأت في أول حملها بالنبي ﷺ في المنام بأنها إذا ولدت يخرج منها نور تضيء له قصور الشام، والمعنى الثاني: أنه النور الحسي، حيث تكاثرت الروايات بأن أمة ﷺ آمنة بنت وهب لما وضعت خرج منها نور أضاء أرجاء المكان حتى بلغ النور والضياء قصور الشام. انظر: "لطائف المعارف" (ص١٧١ — ١٧٣).

(٣) "المسند" (١٢٨/٤). "صحيح ابن حبان" (٦٤٠٤). "المستدرك" (٤٥٣/٢). وحسنه الحافظ الذهبي في "تاريخ الإسلام ـــ قسم السيرة" (ص٤٢). وحسنه كذلك العلامة الألباني رحمه الله: "سلسلة الأحاديث الصحيحة" (١٥٤٦).

(٤) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

(٥) "لطائف المعارف" (ص١٥٨ — ١٥٩).

المولد الشريف ومقدماته [(١)]:

اختار الله تعالى لنبينا محمد ﷺ أبوين شريفين كريمين، أما عبد الله بن عبد المطلب فقد كان أحب أبنائه العشرة إليه، وكان له في قريش حب ومكانة أثيرة، وقد بات ملء السمع والأبصار عقب حادثة نذر عبد المطلب [(٢)]، وما جعل له من الفداء العظيم، وكان محلا لرغبة قريش كل يرجو مصاهرته، لكن عبد المطلب وهو سيد قريش والخبير بأنسابها وأعراقها اختار له فتاة شريفة جليلة، كانت صفوة نساء قريش وفتياها، إنها: آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة [(٣)]، وكنت ذات مكانة في قريش لا يكاد يدانيها فيها أحد من فتياها.

وتمَّ ذلكم الزواج الميمون، وما هي إلا أيام معدودة حتى سافر عبد الله في تجارة له إلى الشام، وبعد أن قضى شغله منها رجع ومر بأخوال أبيه عبد المطلب وهم بنو النجار بالمدينة، وقدر أن يمرض بها، فعاد رفاقه وبقي هو، فأرسل والده عبد المطلب أكبر بنيه وهو الحارث ليرجع به، ولكن ما أن وصل الحارث المدينة حتى علم بوفاة أخيه عبد الله.

ولما بلغ الخبر مكة فجعوا به.... فجع به أبوه، وفجعت قريش،

(١) ينظر لهذا وما بعده: "الطبقات الكبرى" لابن سعد ـــ المجلد الأول ـــ . و "سيرة ابن هشام" (١/٤ – ١٨٦). و"الإشارة لسيرة المصطفى" (ص٥١ – ٨٠) لمغلطاي، و "السيرة النبوية" (١/١٦٠ – ٢١٨). و "تراجم سيدات بيت النبوة" (ص٨٣ – ١٧٨) لعائشة بنت عبد الرحمن ـــ بنت الشاطئ ـــ .

(٢) للتفصيل حول هذه الحادثة: ينظر: "سيرة ابن هشام" (١/١٥١ – ١٥٦).

(٣) يلتقي النبي ﷺ في نسبه مع أمه آمنة في: عبد مناف، الجد الثالث له ﷺ .

غير أن أعظم الأسى كان في نفس الزوجة الأثيرة آمنة.... الـتي لم تهنأ بزوجها إلا أياما معدودة.

هكذا توفي عبد الله، وفي هذا الوقت لم يكن سيد الخلق إلا جنينا في بطن أمه، وهذا أبلغ ما يكون في اليتم، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ (1).

وقد ترك عبد الله إثر موته خمسا من الإبل، وقطيعا من الغنم، وجارية هي أم أيمن بركة الحبشية، فكان ذلك هو جملة ما يمكن أن يرثه ذلك الجنين اليتيم والسيد الكريم المنتظر: محمد ﷺ.

ثم مضت أيام الحمل وشهوره، لتتابع ما تراه آمنة من أمور واكبت حملها من رؤى منامية تنبئ عن قادم عظيم، ومن مشاعر تختلف عما يجده الحوامل من النساء، و لم تزل أشهر حملها تتتابع، تترقب هذا الوليد الذي لم تجد في حمله أي وحم أو وهن أو ألم، حتى حلَّ ذلكم الأجل، عندما دنا فجر يوم الاثنين، الثاني عشر (2) من ربيع الأول عام الفيل ـــ الموافق لسنة (٥٧٠) أو (٥٧١) للميلاد ـــ حيث حل بالأرض ما يؤذن بدنو المولد المبارك، وفي هذا

(1) سورة الضحى، الآية: ٦.

(2) دار بين أهل العلم خلاف في تحديد اليوم، فقال ابن إسحاق: إنه يوم الثاني عشر، وقال بعضهم: بل في اليوم الثاني، وقال بعضهم: بل اليوم التاسع من ربيع الأول. أقول: ولا ريب أن مولده ﷺ مولد مبارك شريف لما جعل الله بمجيء نبينا محمد ﷺ من الخير العظيم للبشرية، غير أن ما يفعله بعض الناس من الاحتفال به أمر يجب أن نتوقف عنده لننظر هل هو من سنته عليه الصلاة والسلام أم أنه على خلاف ذلك، فإذا علمنا أنه عليه الصلاة والسلام لم يحتفل بمولده ولا الصحابة الكرام ولا التابعون لهم بإحسان في القرون المفضلة، وإنما كان من صنع العُبيديين في القرن الرابع، علم حينئذ أنه أمر محدث مبتدع مردود على من يصنعه.

تقول فاطمة بنت عبد الله والدة عثمان بن أبي العاص الثقفي: إنها شهدت ولادة النبي ﷺ حين وضعته أمه آمنة، وكان ذلك ليلا، قالت: فما شيء أنظر إليه من البيت إلا نور، وإني لأنظر إلى النجوم تدنو، حتى إني لأقول: ليقعن عليّ[(١)].

وما أن وضعت آمنة بنت وهب وليدها المبارك حتى رأت أرجاء البيت وما حوله تتلألأ نورا وضياء، وبهذا جاء الحديث الصحيح: «**أن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نورا أضاءت منه قصور الشام**»[(٢)].

فكان بذلك مولد سيد البشر، وخير الأولين والآخرين: محمد ﷺ ، السراج المنير الذي أضاء الله به دياجير الظلمات التي عمَّت الأرض آنذاك.

وكان ذلك النور الذي أضاءت له الأرجاء عند وضعه إشارة إلى ما يجيء به من النور الذي اهتدى به أهل الأرض، وزالت به ظلمة الشرك منها، كما قال تعالى: ﴿**يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ**

(١) ينظر: "الإصابة في تمييز الصحابة" (٦٧/٨) في ترجمة فاطمة بنت عبد الله.
(٢) "المسند" (١٢٧/٤). من حديث العرباض، ومن حديث عتبة بن عبد السلمي ــ رضي الله عنه ــ وصححه ابن حبان (٦٤٠٤).

قَدِيرٌ﴾ (١). وقال تعالى: **﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** (٢).

وفي هذا المعنى يقول عمه العباس في أبياته المشهورة السائرة:

وأنت لما ولدت أشرقت الـ
أرض وضاءت بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء وفي الـ
ـنور وسبل الرشاد نخترق (٣)

وفي هذا السياق يورد المؤرخون ما صاحب المولد المبارك من أحداث متنوعة، من مثل انشقاق إيوان كسرى وسقوط شرفاته حتى لم يبق منها إلا أربع عشرة شرفة، وأولت بأنه إيذان بزوال ملكهم، وأنه لم يبق منهم إلا أربعة عشر ملكا، وكان كذلك، وما أصاب البحيرة العظيمة في ساوة (٤) من الغيض ـــ أي أنها جفت تماما ـــ وخمود نار فارس التي كانوا يعبدونها، والتي لم تخمد منذ

(١) سورة المائدة، الآيتان: ١٥ ، ١٦.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.
(٣) ينظر: "لطائف المعارف" (ص١٧٣ – ١٧٤) لابن رجب. و "سير أعلام النبلاء" (١٠٣/٢) للذهبي.
(٤) مدينة حسنة بين الري وهمذان.

ألف عام قبل مولده ﷺ .

وقد كان مولده ﷺ عقيب ذلك الحدث العظيم الذي سجله القرآن الكريم في سياق امتنان الله تعالى على قريش وعلى المؤمنين وبيان عاقبة المعتدين، إنها حادثة الفيل، عندما عزم أبرهة الحبشي على هدم الكعبة المشرفة فأهلكه الله وجيشه، و لم تمض إلا أيام معدودة، أربعون يوما أو نحوها، حتى ولد المعصوم ﷺ ، قال الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ**﴾[١].

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: كانت قصة الفيل توطئة لنبوته وتقدمة لظهوره وبعثته، وفي ولادة النبي ﷺ عقيبها دلالة على نبوته ورسالته، فإنه ﷺ بعث بتعظيم هذا البيت وحجه والصلاة إليه [٢]، فاقترن بمولده حماية البيت، واقترن بمبعثه تطهيره من الشرك ورده إلى ما كان عليه من دين إبراهيم الحنيف على التوحيد الذي لأجله بني البيت.

وهكذا تنفرج أسارير هذه الأم الكريمة المكلومة بفقد الزوج الحبيب عندما أشرقت عليها الطلعة البهيجة لذلك المولود المبارك، والذي ملأ البيت من حولها نورا وسرورا، ورأت فيه السلوى عن كل ما قد فاتها أو يفوتها من مباهج الحياة الدنيا وزينتها.

---

(١) سورة الفيل.
(٢) "لطائف المعارف" (ص١٨٥ و ١٨٦).

وها هي البشرى تزف للجد الشفوق عبد المطلب والـــذي لم تسعه الدنيا لفرحه بهذا الحفيد الحبيب، والذي رأى فيه ما يعـــوض حزنه على أبيه، وراح يشكر الله على هذه النعمة الجليلة والعطيـــة الكريمة، وألهمه الله أن يسميه (محمدا) هذا الاسم الذي حماه الله أن يتسمى به أحد من قبل نبيه ﷺ ، فلم يتسمى به أحد إلا ما كـــان من عدد محدود سمي به بعض المولودين قرب مولده ﷺ لما قـــرأوا وعلموا من بعض الكتب والرهبان بقرب مولـــد خـــاتم الأنبيـــاء والرسل، وما جاء من البشارة به في الإنجيل **﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾** (١)، رجاء أن يكون مولودهم هو صاحب تلك المنحة الإلهية.

وطفقت قريش تتسامع بهذا المولود المبارك وباتـــت البشـــارة يتناقلها أهل مكة، واحتفى البيت الهاشمي بمولودهم محمد، فنحـــر جده الذبائح في اليوم السابع وأقام الولائم، وكل هـــاشمي تغمـــره الفرحة والمسرَّة، حتى إن أبا لهب عم رســـول الله ﷺ لمـــا جاءتـــه مولاته ثويبة تبشره بولادة آمنة وأنها رزقت بمولود ذكر ما كان منه إلا أن أعتقها جزاء بشارتها له (٢).

---

(١) سورة الصف، الآية: ٦.

(٢) في "صحيح البخاري" (٥١٠١) أن عروة بن الزبير قال: وثويبة مولاة لأبي لهب، كان أبو لهب أعتقها فأرضعت النبي ﷺ ، فلما مات أبو لهب أُرِيَهُ بعض أهله بشَرِّ حِيبَة (سوء حال) قال له: ماذا لقيت؟ قال أبو لهب: لم ألق بعدكم (أي رخاء ولا راحة) غير أني سقيت في هذه (جاء في رواية أنه أشار للنقرة التي تحت الإبهام) بعتاقتي ثويبة. اهـــ. وقد اختلف في هذا أهل العلم وكيف ينتفع الكافر بالعمل الصالح مع كفره، لكن قال بعضهم: قد يكون هذا خاصا به كما اختص به أبو طالب، قال ابن حجر: وقد يقع التفضل المذكور من الله إكراما لمن وقع من الكافر =

وبقي نبينا ﷺ عند أمه الكريمة آمنة فترة وجيزة، فحين ولدته كان رضاعها له أياما معدودة، وأرضعته كذلك ثويبة جارية عمه أبي لهب مع ابن لها يقال له: مسروح.

ولما كان من عادة قريش استرضاع صغارها في البوادي، ليكون ذلك أوفق لهم في أبدانهم وألسنتهم، فقد استرضع النبي الكريم ﷺ في بادية بني سعد بالطائف، لدى السيدة الجليلة حليمة بنت ذؤيب السعدية ـ رضي الله عنها ـ فتولت رضاعه وحضانته، واغتبطت بمقامه عندها أكثر من ثلاث سنين، وسنشير إلى شيء من هذه الذكريات الأثيرة في صفحات تالية بعون الله.

ولما كان مبتدأ السنة الخامسة من العمر المبارك لنبينا محمد ﷺ عاد إلى أمه الحنون بعد أن قوي جسمه وبلغ من النضرة وتفتق الذهن ما لم يبلغه صبي في مثل عمره.

وها هو سيد الخلق ﷺ يدرج في كنف أمه الكريمة، التي أشغلت به ليلها ونهارها، فقد أضحى هو كل شيء في حياتها، وها هو الجد عبد المطلب يلاحظه ويرعاه ويخصه بمعاملة متميزة من التوقير والرعاية والعناية ما لم يجده حتى بنوه، كل ذلك من رعاية الله له وعنايته به: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى**﴾ (١).

وعندما بلغ المعصوم ﷺ السادسة من عمره ارتأت أمه أن

=

البرُّ له، ونحو ذلك. ينظر: "فتح الباري" (١٤٦/٩ – ١٤٧).

(١) سورة الضحى، الآية: ٦.

تذهب به إلى أخوال أبيه من بني النجار [١] بالمدينة، ليراهم ويروه، فأقامت عندهم شهرا من الزمان، وقد كانت ذكريات هذه الرحلة خالدة في ذاكرة نبينا ﷺ ، برغم حداثة سنه إذاك، فقد جاء في بعض الآثار [٢] أنه ﷺ كان يذكر أمورا كانت في مقامه ذلك، لما نظر إلى أُطُم [٣] بني عدي بن النجار عرفه وقال: "..... كنت مع غلمان من أخوالي نُطَيِّر طائرا كان يقع عليه....."، ونظر ﷺ إلى الدار فقال: "ههنا نزلت بي أمي، وفي هذه الدار قبر أبي عبد الله بن عبد المطلب، وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار"، هكذا يلتفت الحبيب ﷺ إلى تلك الأيام الخوالي وما تكتنفه من ذكريات أثيرة.... بصحبة أمه الرؤوم آمنة بنت وهب.

وها هو الركب ييمم نحو مكة بعد أن قضت الأم وصغيرها تلك الأيام المعدودة، وفي الطريق بين مكة والمدينة حلَّ مرض بالأم الجليلة آمنة، حتى وافاها الموت بالأبواء، فشاهد نبينا ﷺ فراقها ورحيلها عن الدنيا.... وقاسى لوعة ذلكم الفراق، حتى إنه ﷺ لما مر بموضع موت أمه بعد أكثر من خمسين عاما توقف عند قبر أمه ومعه عشرة آلاف فارس، فلم يرعهم إلا وسيدهم وإمامهم ﷺ يذرف الدموع الحرَّى، فبكى وأبكى من حوله من أجل أمه الرؤوم[٤].

---

(١) هذه الخؤولة سبيلها من جهة سلمى بنت عمرو النجارية، فهي أم عبد المطلب، وجده لعبد الله ابنه، فقومها أخوال له، وهم بذلك أخوال لنبينا محمد ﷺ لكونهم أخوال أبيه.

(٢) ينظر: "طبقات ابن سعد" (١١٥/١).

(٣) حصن من حصون ديارهم ومزارعهم.

(٤) ينظر: "صحيح مسلم" (٦٧٦)، و "شرح السنة" (٤٦٣/٥) للبغوي.

ست سنين هي عمره ﷺ إذ فارق أمه، ليزيد جده عبد الطلب من رعايته والعناية به والشفقة عليه، حتى إن عبد المطلب كان يوضع له فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد منهم إجلالا، وكان رسـول الله ﷺ يأتي وهو غلام يجلس عليه، فهم أعمامه أن يؤخروه عنه فينـهاهم عبد المطلب قائلا: دعوا ابني، إنه ليُؤنِس مُلْكا، ثم يجلسه ويمسـح ظهره بيده.

وكان عبد المطلب يقربه منه ويدنيه، ويدخله عليه إذا خـلا، وإذا نام، ولا يأكل طعاما إلا ويقول: "علي بابني" فيؤتى به إليـه، وكان يوصي به حاضنته بعد وفاة أمه بركة أم أيمن ويؤكد علـى رعايته وملاحظته، فكانت كذلك في الرفق بـه والشـفقة عليـه وملاحظة شؤونه، ولهذا كان المعصوم ﷺ يذكر لها ذلك، فـروي عنه قوله: «**هي أمي بعد أمي**».

ولما بلغ نبينا ﷺ الثامنة من عمره حضرت الوفاة جـده عبـد المطلب، فأكد وصيته بنبينا محمد ﷺ ، وعهد إلى عمه أبي طالـب بكفالته وحياطته، ولما مات عبد المطلب وجد المصطفى ﷺ لفقـده حزنا عظيما كقدر ما كان يحبه، جاء في روايـة لابـن سـعد في "الطبقات" أن رسول الله ﷺ سئل أتذكر موت عبد المطلب؟ قال: "نعم، أنا يومئذ ابن ثماني سنين".

وقالت أم أيمن: رأيت رسول الله ﷺ يومئذ يبكي خلف سرير عبد المطلب.

ثم انتقلت كفالة رسولنا ﷺ لعمه أبي طالب الذي كان وقتها أشرف قريش وأعظمها مكانة وأكرمها نفسا، برغم أنه لم يكن أكبر بني عبد المطلب سنا ولا أكثرهم مالا، فعظمت مكانة المصطفى عند أبي طالب وأحبه حبا شديدا، وكان يحرص غاية الحرص على ملازمته ويخصه بأشياء كثيرة من قبيل التكريم والتقدير، وقد لاحظ أبو طالب بركات حلول لرسول الله ﷺ في معيشته وزاده وطعامه.

ولم تزل دلائل الشأن العظيم للنبي ﷺ تبدو لأبي طالب يوما بعد يوم، ومن ذلك ما كان عندما سافر معه إلى الشام حتى وصلوا بصرى، فأخبرهم راهب هنالك يقال له: بحيرى بما توسمه من مخايل النبوة والشأن العظيم لرسول الله ﷺ ، وما كان من إظلال السحاب له من الشمس، وغير ذلك من الدلائل، ونصحه أن لا يذهب به إلى الشام خوفا عليه من اليهود [1].

ومما قاله أبو طالب يثني به على النبي ﷺ :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم
فهم عنده في نعمة وفواضل

(١) ينظر: "جامع الترمذي" (٣٦٢)، و "المستدرك" (٦١٥/٢). و "الإصابة في تمييز الصحابة" (٢٩٣/١) للحافظ ابن حجر. و "صحيح سنن الترمذي" (١٩١/٣) للعلامة الألباني.

ومن الأحداث التي كانت في طفولة نبينا محمد ﷺ :

رعيه الغنم:

روى البخاري عن أبي هريرة ــ رضي الله تعالى عنه ــ عن النبي ﷺ قال: «**ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم**» فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «**نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: "قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة: أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة، لأنهم إذا صبروا على رعيها، وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها، وتفاوت عقولها، فجبروا كسرها، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة، لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعي الغنم، وخصت الغنم بذلك: لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر، لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقها فهي أسرع انقيادا من غيرها، وفي ذكر النبي ﷺ لذلك بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله ما كان عليه من عظيم التواضع لربه والتصريح بمنته عليه وعلى إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعلى

سائر الأنبياء" (١).

وهكذا يمضي سيد الخلق ﷺ هذه الطفولة .... بين أرجاء مكة وأنحائها، و لم تزل مكانته بين قومه تزداد سموا وعزا.... لما رأوا فيه من الطهر والزكاء والنبل والوفاء، لقد عرفوه حق المعرفة... عرفوا نسبه وشرفه وصدقه وأمانته وعفته، هكذا نشأ بينهم معروفا بذلك كله، و لم يحفظوا عنه كذبة قط، ولهذا سأل هرقل ملك الروم عن هذه الأوصاف، فعلم أنه ما كان ليدع الكذب على الناس ثم يفتري الكذب على الله عز وجل، وعلم بذلك صدقه فيما جاء به من النبوة والرسالة.

ولا غرو في ذلك..... فإن الله كان يهيئه لأعظم رسالة وأشرف مكانة: ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآَوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى**﴾ (٢).

وتتتابع الأيام وتمضي الشهور والأعوام والنبي ﷺ يزداد شرفا ورفعة ومكانة بين أهل مكة، فلدى تدرجه في مراحل عمره.... ما بعد الطفولة وفي صباه وفي شبابه .... وما بعد ذلك.... لم يعرفوا عنه ﷺ أي أمر يشينه .... فسرته تتوهج نبلا وطهرا وزكاء.... كانت مكة ترتجس بأنواع الملاهي وغوائل العقل والعرض، وطالب هذه الأمور لا نكير عليه ولا مانع له، لكنه ﷺ لم يحفظ عنه في يوم من الدهر أنه تعاطى أي أمر مما يبغضه الله من تلك الملاهي المحرمة

(١) "فتح الباري" (٤٤١/٤).
(٢) سورة الضحى، الآيات: ٥ – ٨.

والأفعال المنكرة.

واستمر ذلك الطهر والزكاء في سيرة المعصوم ﷺ ، وحفظه الله من مزالق الطبع الإنساني برغم ما كانت ترتجس به مكة آنذاك من أمور منكرة، أما أهل مكة فكانوا لا يدانون به ﷺ أحدا منهم ولا من غيرهم في طهره وأمانته وزكائه، فبات نبينا ﷺ ملء سمع قريش وأبصارها، فلا تعرفه ولا تدعوه إلا بالأمين.... حتى أكرمه الله بالنبوة وابتعثه بالرسالة الخاتمة. فتضاعفت فيه تلك الأخلاق الكريمة وتزايدت الخلال النبيلة بما أوحى الله إليه من الشرع المطهر علاوة على الفطرة المستقيمة التي فطر الله عليها نبيه محمدا ﷺ .

نسأل الله أن يوفقنا لمتابعته وسلوك هديه، وأن يحشرنا يوم القيامة في زمرته. آمين.

* * *

مراضع المصطفى ﷺ وحواضنه
تاريخ وذكريات

كان من عادة العرب ـــ ومنها قريش ـــ أن تسترضع صغارها في البوادي، ليكون ذلك أوفق لهم في أبدانهم وألسنتهم.

وها هو وفد نساء هوازن وقد أتين من بادية بني سعد يُـــيَمِّمن وجوههن نحو حاضرة قريش علهن يحظين بصبي أو جارية يـــدخل عليهن من خلاله مال يزحزح عنهن شبح الفاقة والعيلة.

ولما كان سيد البشر نبينا محمد ﷺ حينذاك يتيما لا يُرجى لـــه أب يغدق النوال والعطاء، فقد أعرض عنه المراضع، لتتوجه منحـــة ربنا وكرامته إلى سيدة كريمة ومرضع جليلة .... إنها: حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية... فأسعدها ربها بخير البرية محمد ﷺ .

فقد أكرم الله تعالى هذه المرأة بأن تتـــولى رضـــاع الـــنبي ﷺ وحضانته لمدة تربو عن أربع سنين.

وخبر إرضاع حليمة للنبي ﷺ في ديار قومها في بادية بني سعد بالطائف خبر شهير مستفيض في كتب السيرة وفي غيرها، وقد قال بصحته عدد من العلماء الحفاظ كابن كثير والذهبي وابن حجر ـــ رحمهم الله ـــ وغيرهم.

وقد أورد الحافظ الذهبي ـــ رحمه الله ـــ في قسم السيرة مـــن "تاريخ الإسلام" [١] خبرا مطولا رواه بعض أهل السير عن حليمـــة

(١) (ص ٤٥ – ٤٨).

السعدية ــ وجود إسناده ــ تخبر فيه عما لاحظته إبان إرضاعها له مما يدل على بركته ﷺ ، وعناية الله به وحفظه له.

فما أن حل عليها محمد بن عبد الله ﷺ ، حتى در ثديها اللبن، فارتوى منه عليه الصلاة والسلام وارتوى ابنها الذي كانت تحمله [1]، بعد أن كان يبكي من الجوع لجفاف ثدي أمه، وكان ابنها من شدة ما فيه من الجوع من قبل يبكي حتى لا يـدع أحـدا ينـام، وببركة المصطفى ﷺ وهو رضيع امتلأ ضرع راحلة حليمة بـاللبن بعد أن كان يابسا، فشبعت هي وزوجها من لبن الراحلة، وأضحت نشيطة قوية، تسير في مقدمة الركب بعد أن كانت عاجزة تسير في مؤخرة الركبان، وحيثما حلت أغنام حليمة تجد مرعـى خصـبا فتشبع ولا تجد أغنام غيرها شيئا، وكان ينمو نموا سريعا لا يشبه نمو الغلمان.

كل ذلك وغيره من مباركة الله تعالى لنبيه ﷺ ، منذ صـغره على حليمة وأهلها.

ثم عادت هذه البركة على هوازن كلهم بعد أن أسروا بعد فتح مكة [2]، كما سأذكره بعد قليل، بل إن بركته ﷺ عـادت علـى البشرية جمعاء ليخرج الله من شاء منهم من الظلمات إلى النور.

وكانت حليمة ــ رضي الله عنها ــ تداعب النبي ﷺ وترقصه،

---

(١) واسمه: مسروح.
(٢) ينظر: "البداية والنهاية" (٣٣٨/٢)، ط الأولى دار إحياء التراث، تحقيق: علي شيري.

وتناغيه، كما تفعل الأمهات مع الأبناء، فمن ذلك قولها [1]:

يـــــا رب إذ أعطيتـــــــه فأبقــــــه
وأعلــــــــه إلى العــــــــلا ورقِّـــــــه
وادحض أباطيل العدا بحقه

وكانت الشيماء ــ أخته من الرضاعة ــ تقول:

هـــــــذا أخ لي لم تلــــــده أمـــــــي
ولـــــيس مـــــن نســـــل أبي وعمـــــي
فديتـــــه مـــــن مخـــــول معمـــــي [2]
فأنمـــــه اللـــــهم فيمـــــا تنمـــــي

وكانت تقول ــ أيضا ــ :

يـــــا رب أبـــــق أخـــــي محمـــــدا
حـــــتى أراه يافعـــــا وأمـــــرادا
ثم أراه ســـــــــيدا مســـــــــودا
واكبـــــت أعاديـــــه معـــــا والحســـــدا
وأعطه عزا يدوم أبدا

وهكذا تعيش حليمة أزهى أيام عمرها وأسعدها منذ ولـــدت، حتى جاء ذلك اليوم الذي وقع فيه حادث أقلقها، ذلكم هو ما يبينه

(١) ينظر: "السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة" (١/١٩٥) للدكتور محمد أبو شهبة ــ رحمه الله ــ.
(٢) تعني أنها تفتديه بأكرم أخوالها وأعمامها.

ما رواه مسلم في "صحيحه" [(١)] عن أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ــ عليه السلام ــ وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه، فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه [أي جمعه وضم بعضه إلى بعض] ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه، يعني ظئره [أي مرضعته] فقالوا: إن محمدا قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع [أي متغير اللون] قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره [يعني أنه كان يرى أثر الغرزات والخياطة في صدر النبي ﷺ].

كانت تلكم الحادثة ولرسول الله ﷺ حوالي الأربع سنين أو الخمس [(٢)].

ويحدثنا المصطفى ﷺ عن هذه الحادثة التي كانت في طفولته وكيف أنها أقلقت حاضنته وأمه من الرضاعة حليمة فيقول: "فقالت: أعيذك بالله، فرحلت بعيرا لها، فجعلتني على الرحل وركبت خلفي، حتى بلغنا إلى أمي، فقالت: أديت أمانتي وذمتي، وحدثتها بالذي لقيت، فلم يرعها ذلك [أي لم تفزع أو تقلق]، وقالت: إني رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام" رواه الإمام الدارمي وأحمد والحاكم [(٣)]، وصححه الحافظ الذهبي

---

(١) (رقم ١٦٢/٢٦١).

(٢) ينظر: "السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية" (ص١١٧) د. مهدي رزق الله أحمد.

(٣) "سنن الدارمي" (١/٨ – ٩)، "المسند" (٤/١٨٤)، "المستدرك" (٢/٦١٦ – ٦١٧).

والعلامة الألباني [(١)].

ويحسن التوقف عند حادثة شق الصدر هذه، والتي تكررت أيضا ليلة الإسراء كما ثبت ذلك في "الصحيحين" [(٢)] أيضا، حيث يقول الحافظ ابن حجر ـــ رحمه الله ـــ : "إن جميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له، دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك".اهـ[(٣)].

وشق الصدر هذا يبين تعهد الله ـــ عز وجل ـــ نبيه محمدا ﷺ عن مزالق الطبع الإنساني ووساوس الشيطان، وهو حصانة للرسول الكريم التي أضافها الله عليه ليكون المثل الكامل للإنسان الكامل الذي يحقق الكمال بطهارة القلب وزكاء النفس، ولأجل ذلك فقد شب رسول الله ﷺ بمكة وهي تعج بمختلف أنواع اللهو والفساد والملاذِّ الشهوانية الدنسة، ومظاهر الشرك المتنوعة، ولم يتدنس بشيء من ذلك، فكانت حياته ﷺ حياة زكية طاهرة من الآثام التي تُدنس كثيرا من الشباب في مجتمعاتهم.

وعودا على رضاعه عليه الصلاة والسلام، فها هو بعدما يزيد على ستين سنة يعود ببركته وبره على مرضعته وقومها، فإن هوازن وقعوا في الأسر وغنمت أموالهم في غزوة حنين، وذلك بعد فتح

---

(١) "السيرة من تاريخ الإسلام" (ص٤٨ – ٤٩)، "السلسلة الصحيحة" رقم (٣٧٣).
(٢) "صحيح البخاري" (٣٢٠٧)، "صحيح مسلم" (١٦٤)، "السيرة" للذهبي (ص٤٩).
(٣) "فتح الباري" (٢٠٥/٧)، عند حديث (٣٨٨٧).

مكة بأشهر، قال وفدهم وقام خطيبهم زهير بن صرد فقال ضمن ما قال: "إنما في هذه الحظائر [يعني مواضع الأسرى] عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك" (١).

فأطلق النبي ﷺ الذرية، وكانت ستة آلاف، ما بين صبي وامرأة، وأعطاهم أنعاما وأناسي كثيرا.

وهذا الخبر ضمن أبيات شعر مال الحافظ ابن حجر إلى تصحيحه(٢).

قال الحافظ ابن كثير: قال الحسين بن فارس فكان قيمة ما أطلق لهم يومئذ خمسمائة ألف ألف درهم (أي خمسمائة مليون درهم)، فهذا كله من بركته العاجلة في الدنيا، فكيف ببركته على من اتبعه في الآخرة. اهـ(٣). أسأل الله الكريم أن يجعلني وإياك منهم.

وحيث قد عدنا بالذاكرة بما يزيد على ألف وأربعمائة وخمسين عاما، فلنبق هنالك لنختم هذا المقتطف العابق بذكر حواضن المصطفى ﷺ على طريقة أهل السير.

وفي هذا يقول العلامة ابن القيم(٤) ــ رحمه الله ــ : فمنهن أمه

(١) حاشية "دلائل النبوة" للبيهقي (١٣٧/١ – ١٣٨).
(٢) ينظر: "الإصابة" (٤٧٤/٢).
(٣) "البداية والنهاية" (٣٤٠/٢)، والخبر رواه ابن هشام (٤٨٨/٢) من طريق ابن إسحاق، قال: حدثه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وهذا سند حسن، وأخرجه بنحوه البخاري. وأحمد (٣٢٦/٤).
(٤) ينظر: "زاد المعاد" (٨٣/١).

آمنة، ومنهن ثويبة، وحليمة، والشيماء ابنة حليمة، وهـي أخـت النبي ﷺ من الرضاع، كانت تحضنه مع أمها، ومنهن الفاضلة الجليلة أم أيمن بركة الحبشية، وهي مولاته، ورثها من أبيه ثم أعتقها عندما تزوج بخديجة، وقيل ورثها من أمه.

قال القرطبي ـــ رحمه الله ـــ : وكان ﷺ يكرمها، ويبرها مبرة الأم، ويكثر زيارتها، وكان ﷺ عندها كالولد، ولذلك كانت تَتَذَمَّر وتَتَغَضَّبُ عليه محبة وشفقة، ومن طريف ذلك ما رواه مسـلم في "صحيحه" (١) عن أنس قال: انطلق رسـول الله ﷺ إلى أم أيمـن، وانطلقت معه، فناولته إناء فيه شراب، قال: فـلا أدري أصـادفته صائما أو لم يرده، فجعلت تَصَخَّب عليه وتذمر عليه. يعني كمـا تفعل الأمهات إذا عاف الابن الطعام.

وللقرطبي ـــ رحمه الله ـــ كلام في الثناء عليها، والتعليق علـى بكائها على النبي ﷺ كلام مختصر جليل يضيق المقام عن إيراده وهو في كتابه "المفهم" (٢).

وبعد، أيها الأحبة، تلكم بعض الصفحات لطفولة أعظم مخلوق وطئت قدماه الثرى صنعت على عين الله، يرعاه ويحوطـه، ولـه الحكمة والقدرة سبحانه، طفولة امتزجت بإظهار المعجـزات مـع مكابدة البلاء من اليتم والعيلة وقلة النصير، حتى أكمل الله دينه وأتم نعمته بدين الإسلام وبعثه خير الأنام محمد بن عبد الله خاتم رسـل

---

(١) (رقم ٢٤٥٣).
(٢) ينظر: "المفهم" (٦/٣٦١ — ٣٦٢).

الله وأنبيائه ﷺ .

وفقنا الله لسلوك شرعه واقتفاء هديه ولزوم سنته ومصاحبته في الآخرة. آمين...



الرعاية النبوية للطفولة

لا ريب أن الحياة الأسرية النبوية مثال متميز في سموه وكماله، ولهذا ينبغي على كل مسلم ومسلمة الاقتداء بها وترسُّم آثارهـا، ومن جوانب هذه الأسر التي ينبغي دراستها وتفهمهـا، جانـب الرعاية النبوية للطفولة، وهذا جانب جدير بأن يفـرد بالتـأليف والتصنيف، وفي ضوء ذلك فسوف نستجلي تلك الرعاية النبوية مع التنبيه على بعض الدروس والفوائد.

وفيما يتعلق بأولاد النبي ﷺ الذي رزق بهم، فمعلوم أنـه ﷺ رزق بسبعة، أربع بنات، وثلاثة أولاد ذكور.

البنات هن: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، والأبناء: القاسم وعبد الله وإبراهيم.

وكلهم من خديجة إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية، وكلـهم ماتوا قبله إلا فاطمة، فإنها عاشت بعده ستة أشهر.

ومن صور رعاية الطفولة في بيت النبوة، مـا رواه مسـلم في "صحيحه" (١) عن خادم رسول الله ﷺ أنس بن مالك ـــ رضي الله عنه ـــ قال: قال رسول الله ﷺ : «**ولد لي الليلة غلام، فسـميته باسم أبي إبراهيم**»، ثم دفعه إلى أم سيف امرأة قـين [أي حـداد] يقال له أبو سيف، [يعني أنه ﷺ جعل تلك المرأة التي يقال لهـا أم سيف ترضع إبراهيم، كما كانت عادة العرب في ذلك] قال أنس:

---

(١) (رقم ٢٣١٥).

فانطلق يأتيه، واتبعته، فانتهينا إلى أبي سيف، وهو ينفخ بكيره، قد امتلأ البيت دخانا [يعني من آثار الحدادة] قال أنس: فأسرعت المشي بين يدي رسول الله ﷺ ، فقلت: يا أبا سيف، أمسك، جاء رسول الله ﷺ ، فأمسك، فدعا النبي ﷺ بالصبي، فضمه إليه، وقال: ما شاء الله أن يقول".

فدل هذا الحديث على كمال رأفة النبي ﷺ وشفقته، فبرغم كونه إمام الأمة وقائدها فلم يشغله ذلك عن رعاية هذا الوليد الجديد، وفي هذا تنبيه لأولئك الآباء والأمهات الذين يحرمون أبناءهم من عطفهم وحناهم ويتشاغلون عنهم بالجري المستميت في جمع المال أو في غير ذلك.

وها هو عليه الصلاة والسلام يقدم درسا عمليا لمثل هذا الصنف من الناس. ذلك ما ثبت في "الصحيح" (١) عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: قبل رسول الله ﷺ الحسن بن علي ــ رضي الله عنهما ــ وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسا، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد، ما قبلت منهم أحدا، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «**من لا يرحم لا يرحم**».

فهذا الرجل وهو الأقرع بن حابس ــ وكان من سادة العرب وأمرائهم أسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه ــ كان يظن أن مقام الرجولة والسيادة يفرض على صاحبه عدم التأثر بالعاطفة، وأن يكون منقبضا عن إظهار أثر تلك العاطفة أمام الناس، فاستنكر

(١) عند البخاري (رقم ٥٩٩٧)، ومسلم (رقم ٢٣١٨).

تقبيل النبي ﷺ للحسن ــ رضي الله عنه ــ .

لكن النبي ﷺ بين له أن تقبيل الأطفال والحنو عليهم والشفقة بهم مظهر من مظاهر الرحمة التي يستحق صاحبها رحمة الله ــ جل وعلا ــ ، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**الراحمون يرحمهم الله، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»(١).

ومن صور الرعاية النبوية للطفولة: ما رواه البخاري ومسلم (٢) عن عائشة أم المؤمنين ــ رضي الله عنها ــ قالت: أُتي رسول الله ﷺ بصبي [وذلك ليحنكه، كما في رواية] فبال على ثوبه فدعا بماء فأتبعه إياه.

وروى البخاري ومسلم (٣) أيضا عن أم قيس بنت محصن ــ رضي الله عنها ــ أنها أتت بابن لها صغير، لم يأكل الطعام إلى رسول الله ﷺ ، فأجلسه رسول الله ﷺ في حجره، فبال على ثوبه، فدعا بماء فنضحه، و لم يغسله.

ففي هذين الحديثين أن هذين الصبيين أتي بهما إلى النبي ﷺ ، وكان المسلمون يأتون بصبيانهم إليه ﷺ ، ليحنكهم وليدعو لهم ولطلب بركته ﷺ ، وحيث أن الصبي صغير لا يعقل، فربما بال بعض أولئك الصبيان على ثياب النبي ﷺ ، إذا كان الواحد منهم في حجره ﷺ ، فكان عليه الصلاة والسلام لا يأنف لذلك ولا

(١) أخرجه أحمد (٢/١٦٠)، وأبو داود (رقم ٤٩٤١)، والترمذي (رقم ١٩٢٤) وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (رقم ٣٥٢٢).
(٢) "صحيح البخاري" (٢٢٢)، و "صحيح مسلم" (٢٨٦).
(٣) "صحيح البخاري" (٢٢٣)، و "صحيح مسلم" (٢٨٧).

يغضب، بل يرفق بهم ويتلطف معهم، وكان هديه أن يرش ذلك البول بالماء.

وفي هذين الحديثين عدد من المسائل والفوائد: منها:

بيان ما كان عليه النبي ﷺ من التواضع وطيب المعشر، ورحمته بالصغار، ومراعاة خواطر أهليهم إذا صدر من أولئك الصغار ما يكره، فإن ذلك الصبي لما بال على ملابس النبي ﷺ لم يظهر كراهة ذلك، بل شرع النبي ﷺ ما ينبغي لهم في مثل هذه الحال.

ولو أن صبيا بال على الفراش لا على ملابس الأب أو الأم لسمعت دعوات الموت أن تنزل به، أو أن يتخطفه الجن، أو يحل به مرض أو عاهة!.

وهذا يقع من كثير من الناس وخاصة الأمهات، وهذا خلاف الهدي النبوي.

وقد قال ﷺ : «**لا تدعوا على أنفسكم ولا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم**»[1].

ومن المسائل التي دل عليها الحديث المذكور آنفا: استحباب تحنيك الطفل الوليد.

قال الحافظ ابن حجر ــ رحمه الله ــ : والتحنيك: مضغ

(١) أخرجه أبو داود (رقم ١٥٣٢)، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (رقم ٧٢٦٧).

الشيء ووضعه في فم الصبي، ودلك حنكه به، يصنع ذلك بالصبي ليتمرن على الأكل ويقوى عليه، وينبغي عند التحنيك أن يفتح فاه، حتى ينزل [المحنك به إلى] جوفه، وأولاه التمر، فإن لم يتيسر تمر فرطب، وإلا فشيء حلو، وعسل النحل أولى من غيره، ثم ما لم تمسه النار، كما نظيره مما يفطر الصائم عليه" اهـ.

ومن أدلة سنة التحنيك، ما رواه مسلم [1] عن عائشة قالت: كان ﷺ يؤتى بالصبيان فيُبَرِّكُ عليهم ويُحنِّكهم.

"فدل ذلك على أن التحنيك سنة لفعل النبي ﷺ بحيث يقوم به الوالدان أو غيرهما، لكن لا يطلب ذلك من العلماء أو الصالحين أو غيرهم لأجل التبرك بهم، لأن طلب ذلك من الغير لأجل البركة خاص بالنبي ﷺ حيث جعل الله البركة في ريقه وعرقه ﷺ"[2].

ومن المسائل التي دل عليها الحديثان المذكوران، أن الصبي الذكر إذا كان لا يأكل الطعام، أي أنه لا يزال يعتمد في طعامه على الحليب فقد خففت نجاسة بوله بأن يُكتفى بإمرار الماء عليه دون دَلْك ولا عَصْر، كما في النجاسات الأخرى. ولهذه المسألة تفصيلات محلها كتب الفقه.

وها هو موقف آخر وصفحة وضيئة من بيت النبوة في العناية بالأطفال وتلبية نزعاتهم الفطرية من محبة العبث واللعب أو التعلق بأشخاص ونحو ذلك، يبين هذا موقف طريق لأمامة بنت أبي العاص

(١) في "صحيحه" (رقم ٢٨٦).
(٢) من إفادات سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ــ رحمه الله ــ .

بن الربيع، حفيدته ﷺ ، بنت بنته زينب، فقد روى أبو قتادة ـــ رضي الله عنه ـــ قال: بينما نحن ننتظر رسول الله ﷺ للصلاة، في الظهر أو العصر، وقد دعاه بلال للصلاة، إذ خرج علينا وأمامة بنت أبي العاص، بنت ابنته، على عنقه، فقام رسول الله ﷺ في مصلاه، وقمنا خلفه، وهي في مكانها الذي هي فيه، قال: فكبَّر، فكبَّرنا، قال: حتى إذا أراد رسول الله ﷺ أن يركع أخذها فوضعها، ثم ركع وسجد، حتى إذا فرغ من سجوده ثم قام، أخذها فردها في مكانها، فما زال رسول الله ﷺ يصنع بها ذلك في كل ركعة، حتى فرغ من صلاته.

هذه إحدى روايات أبي داود في سننه[١]، وأصله في صحيحي البخاري[٢]، ومسلم[٣] بسياق أخصر من هذا.

وكأن أمامة وهي الطفلة الصغيرة قد تعلقت بأبيها ﷺ حتى ألحت بأن تخرج معه للصلاة، ولو تركها لبكت لذلك، فخرج بها ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ وصلى بالمسلمين وهو يحملها على عاتقه الشريف، فإذا سجد وضعها، ثم يعيدها إذا قام.

قال الإمام الحافظ النووي ـــ رحمه الله ـــ عن فعله ﷺ ذلك: إنه جائز لنا وشرع مستمر للمسلمين إلى يوم الدين، وذكر من فوائده: جواز حمل الصبيان في الصلاة، وأن ثيابهم وأجسادهم محمولة على الطهارة حتى يتحقق نجاستها، وأن الفعل القليل لا

(١) (رقم ٩٢٠).
(٢) (رقم ٥١٦ ، ٥٩٩٦).
(٣) (رقم ٥٤٣).

يبطل الصلاة، وأن الأفعال إذا تعددت و لم تتوال بل تفرقت لا تبطل الصلاة، وفيه تواضع النبي ﷺ وشفقته على الأطفال، وإكرامه لهم جبرا لهم ولوالديهم. اهـ. ملخصا.

وينبه هنا إلى أن الحكم بجواز حمل الصبيان في الصلاة لا يعني أن يكون من عادة الأب أن يأتي بأبنائه للمسجد وهم غير مميزين، أو وهم يحدثون الفوضى، أو وهم لا يوجهون ولا يقبلون التوجيه، بل ينبغي أن يحرص على توجيه الأطفال عند حضورهم للمسجد إلى ما ينبغي، وكل ذلك باللطف واللين.

فمن مظاهر تلك الرعاية: ما رواه الإمام أحمد (١) والنسائي (٢) بسند صحيح عن عبد الله بن شداد عن أبيه — رضي الله عنه — قال: خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسنا أو حسينا، فتقدم رسول الله ﷺ فوضعه ثم كبر للصلاة فصلى فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها، قال شداد: فرفعت رأسي وإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد، فرجعت إلى سجودي، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة، قال الناس: يا رسول الله، إنك سجدت بين ظهراني صلاتك [يعني في أثناء صلاتك] سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر، أو أنه يوحى إليه، قال: **«كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى**

---

(١) في "مسنده" (٤٩٣/٣) (٤٦٧/٦) من حديث شداد بن الهاد الليثي.

(٢) في "المجتبى" (١٢٩/٢ — ٢٣٠ رقم ١١٣٩)، وفي "الكبرى" (برقم ٧٢٧)، وكذا أخرجه الحاكم في "المستدرك" (١٦٥/٣ — ١٦٦) (٦٢٦/٣ — ٦٢٧)، وصححه ووافقه الذهبي.

يقضي حاجته».

وهذا درس عملي منه ﷺ ، وعلى مرأى من الصحابة لبيان جواز مثل ذلك العمل في الصلاة، قال الحافظ الذهبي معقبا عليه: أين الفقيه المتنطع عن هذا الفعل.

وفي رواية لابن حبان في "صحيحه" [١] عن أبي بكرة ــ رضي الله عنه ــ قال: كان رسول الله ﷺ يصلي بنا، وكان الحسن يجيء وهو صغير، فكان كلما سجد رسول الله ﷺ وثب على رقبته وظهره، فيرفع النبي ﷺ رأسه رفعا رقيقا حتى يضعه، فقالوا: يا رسول الله، إنك تصنع بهذا الغلام شيئا ما رأيناك تصنعه بأحد، فقال: «**إنه ريحانتي من الدنيا، إن ابني هذا سيد، وعسى الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين**».

وقوله ﷺ : عنهما: «**ريحانتي من الدنيا**» شبههما بذلك لأن الولد يشم ويقبل.

وروى أهل "السنن" [٢] بسند حسن عن عبد الله بن بريدة عن أبيه ــ رضي الله عنه ــ قال: بينا رسول الله ﷺ على المنبر يخطب إذ اقبل الحسن والحسين ــ رضي الله عنهما ــ عليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل وحملهما، فقال: «**صدق الله: ﴿أَنَّمَا**

---

(١) (٩/٥٧ رقم ٦٩٢٥)، وفي "موارد الظمآن" (رقم ٢٢٣٢).

(٢) أخرجه أحمد (٥/٣٥٤)، وأبو داود (رقم ١١٠٩)، والترمذي (رقم ٣٧٧٤)، وابن ماجة (رقم ٣٦٠٠)، وابن خزيمة في "صحيحه" (رقم ١٤٥٦ ، ١٨٠١)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

﴿أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [(١)] رأيت هذين يمشيان ويعثران في قميصيهما، فلم أصبر حتى نزلت فحملتهما»، وفي رواية: ثم أخذ في خطبته.

وفي صحيح البخاري [(٢)] عن أبي بكرة قال: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر، والحسن إلى جنبه [يعني وهو طفل صغير] ويقول: «**إن ابني هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين**».

وهذا من معجزاته ﷺ ودلائل نبوته، حيث كان ذلك الذي أخبر به في عام واحد وأربعين في شهر ربيع الأول، وذلك عندما نزل الحسن بن علي ــ رضي الله عنهما ــ عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ــ رضي الله عنهما ــ فحقنت بذلك دماء الأمة، وما أعظمه من سيد جليل رزين عاقل حينما التقت عساكر المسلمين الذين معه ومع معاوية، والناس أمثال الجبال في الحديد، فقال: أضرب هؤلاء بعضهم ببعض في ملك من ملك الدنيا! لا حاجة لي بهم ــ فرضي الله عنه وأرضاه ــ .

وفي المسند [(٣)] بسند صحيح عن أبي الحوراء قال: قلت للحسن بن علي: ما تذكر من رسول الله ﷺ [وإنما هذا السؤال لصغره عندما توفي النبي ﷺ حيث كان له من العمر نحوا من سبع سنين وستة أشهر حيث كان مولده للنصف من رمضان سنة ثلاث من الهجرة وهكذا أخوه الحسين كان يصغره بسنة أو أقل] فقال الحسن

(١) سورة التغابن، الآية: ١٥

(٢) (رقم ٢٧٠٤ ، ٣٦٢٩ ، ٣٧٤٦ ، ٧١٠٩).

(٣) (١/٢٠٠) من حديث أبي الحوراء السعدي.

في جوابه لأبي الحوراء: أذكر أني أخذت تمرة من تمر الصدقة فألقيتها في فمي، فانتزعها رسول الله ﷺ بلعابها، فألقاها في التمر، فقال له رجل: ما عليك، لو أكل هذه التمرة؟ قال: «**إنا لا نأكل الصدقة**»، قال: وكان يقول: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة**»[(١)] قال: وكان يعلمنا هذا الدعاء، [وفي رواية علمني] رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في قنوت الوتر: «**اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، إنه لا يذل من واليت، تباركت ربنا وتعاليت**».

وفي صحيح البخاري [(٢)] ومسلم [(٣)] عن أبي هريرة قال: أخذ الحسن بن علي تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه، فقال رسول الله ﷺ : «**كخ كخ، إرم بها، أما علمت أنا لا نأكل الصدقة**»، وفي رواية: «**أنا لا تحل لنا الصدقة**». قال الحافظ ابن حجر في فوائده: فيه تأديب الأطفال بما ينفعهم ومنعهم مما يضرهم من تناول المحرمات، وإن كانوا غير مكلفين ليتدربوا على ذلك. فليتنبه لهذا من استمرأت نفسه أن يتعاطى المحرمات من أموال وغيرها ثم يطعم أولاده منها، وقد قال رسول الله ﷺ : «**أيما جسد بني على حرام**

---

(١) أخرجه أحمد في "المسند" (١/٢٠٠)، والترمذي (رقم ٢٥١٨)، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (رقم ٣٣٧٨).
(٢) (رقم ١٤٩١).
(٣) (رقم ١٠٦٩).

فالنار أولى به».

وهكذا نلحظ من خلال المواقف السابقة وغيرها أن أكثير رعاية النبي ﷺ للأطفال والطفولة، بتنشئتهم على الإيمان والتقوى، وتوثيق صلتهم بالخالق - جل وعلا، مع تعويدهم على الأخلاق الفاضلة، والخصال الحميدة، ورعاية الأدب والفضيلة، مع إشباع رغباتهم الفطرية في اللهو واللعب المباح والمفيد، من غير زجر لهم، ولا جرح لمشاعرهم الرقيقة، ولا تكدير لخواطرهم اللطيفة، إذ أن من صفات النفوس الكريمة الحرص على غرس السعادة في نفوس الأطفال ورسم البسمة على وجوههم.

فحمل الطفل وتقبيله وضمه ومداعبته والابتسام في وجهه لها أثر السحر في نفسيته.

وهكذا التوجيهات اللطيفة الأساسية ترسخ في قلب الطفل وذاكرته كما تقدم فيما حفظه الحسن من جده الحبيب المصطفى ﷺ.

وهكذا مداعبته ﷺ لأحد أطفال الصحابة وله من العمر خمس سنين، ذلكم هو محمود بن الربيع حيث روى عنه البخاري في "صحيحه" (١) أنه قال: عقلت من النبي ﷺ مَجَّةً مَجَّهَا في وجهي وأنا ابن خمس سنين من دلو".

وهكذا مداعبته ﷺ لأخي أنس بن مالك وقوله له: «**يا أبا**

(١) (رقم ١١٨٥).

عُمَيْر ما فعل النُّغَيْر» لأن أبا عمير هذا كان له طائر وهو النُّغْـرَة يشبه العصفور فمات، فحزن عليه، فلما زارهم النبي ﷺ فرآه حزين النفس مهموم فأخبر أنه حزن على موت طيره فمسح النبي ﷺ رأس أبي عمر يداعبه ويقول: «**يا أبا عمير، ما فعل النغير**» خرجه البخاري[1] وغيره، وفيه من وجوه الفقه وفنون الأدب والفائدة ما يزيد على ستين وجها. نبه إليها الحافظ في الفتح.

وجاءت طفلة إلى النبي ﷺ مع أبيها، وهي بنت خالد بن سعيد، وعليها قميص أصفر، فقال لها رسول الله ﷺ : «**سنه، سنه**»، قال الراوي ومعناها بالحبشية: حسنة، وكانت هذه الطفلة قد لبثت في الحبشة زمنا أثناء الهجرة للحبشة فعرفت شيئا من لغتهم، ثم همت تلك الصبية أن تلعب بخاتم النبوة الذي بين كتفيه ﷺ ، فزجرها أبوها، فقال عليه الصلاة والسلام: «**دعها**» ثم قال رسول الله ﷺ : [بعد أن كساها ثوبا جديدا كما في الرواية]: «**أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي**»، فبقي ذلك الثوب أمدا طويلا وعمرت تلك الطفلة عمرا طويلا ببركة دعائه ﷺ، والحديث رواه البخاري وبوب عليه في كتاب الأدب فقال: باب من ترك صبية غيره تلعب به، أو قبلها أو مازحها[2].

وفي جانب آخر من جوانب رعاية الطفولة في بيته ﷺ ثبت في صحيح البخاري[3] وغيره عن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ قال:

(١) في "صحيحه" (رقم ٦١٢٩)، وكذا أخرجه مسلم في "صحيحه" (رقم ٢١٥٠).
(٢) رقم (٥٩٩٣)، وينظر: "الفتح" (١٠/٢٧٢ ، ٤٢٥).
(٣) (رقم ٣٣٧١).

كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين: «**أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة**»، ويقول: «**إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق**».

وفي سياق حفظ الأطفال ورعايتهم يوجه النبي ﷺ أولياءهم إلى حفظهم وملاحظتهم وخاصة عند أول الليل، فيقول ﷺ : «**إذا كان جنح الليل** [أي إذا أقبل ظلامه] **فكفوا صبيانكم، فإن الشياطين تنتشر حينئذ، فإذا ذهب ساعة من الليل فخلوهم**...»[1] إلخ الحديث، والمعنى: لا تمنعوهم من الخروج بعد ذلك.

وفي صحيح البخاري[2] وغيره عن أبي هريرة أن النبي ﷺ جاء إلى بيت فاطمة وسأل عن الحسن، فانتظره عليه الصلاة والسلام، فأبطأ عليه حتى قال أنس: ظننت أن فاطمة تلبسه أو تغسله فجاء يشتد — يعني يسرع — [فقال النبي ﷺ بيده هكذا، أي: مدها] حتى عانقه وقبله وقال: «**اللهم إني أحبه وأحب من يحبه**»، وفي صحيح مسلم[3] قال: «**اللهم إني أحبه فأحب من يحبه**».

اللهم إننا نحب سبطا نبيك وريحانتيه وسائر آله الكرام وصحبهن العظام، اللهم فاكتب لنا عفوك وحبك يا سميع الدعاء. وصل اللهم على عبدك ورسولك محمد.

* * * * *

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٨٠)، ومسلم (رقم ٢٠١٠ ، ٢٠١٣) باختلاف.
(٢) (رقم ٢١١٢، ٥٨٨٤).
(٣) (رقم ٢٤٢١).

المصطفى ﷺ يمازح يتيمة

روى الإمام مسلم في "صحيحه" [١] عن أنس بن مالك ـــ رضي الله عنه ـــ قال: كانت عند أم سليم يتيمة ـــ وهي أم أنس ـــ فرأى رسول الله ﷺ اليتيمة، فقال: «**أنت هيه؟ لقد كبرت، لا كبر سنك**» فرجعت اليتيمة إلى أم سليم تبكي، فقالت أم سليم: مالك يا بنية؟ قالت الجارية: دعا علي رسول الله ﷺ أن لا يكبر سني، فالآن لا يكبر سني أبدا ـــ أو قالت: قرني ـــ فخرجت أم سليم مستعجلة تلوث خمارها [أي تديره على رأسها وعنقها]، حتى لقيت رسول الله ﷺ ، فقال لها رسول الله ﷺ : «**مالك يا أم سليم؟**» فقالت: يا نبي الله، أدعوت على يتيمتي؟ قال: «**وما ذاك يا أم سليم؟**» ، قالت: زعمت أنك دعوت ألا يكبر سنها، ولا يكبر قرنها، قال: فضحك رسول الله ﷺ ، ثم قال: «**يا أم سليم، أما تعلمين شرطي على ربي أني اشترطت على ربي فقلت: إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر، فأيُّما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل أن تجعلها له طهورا وزكاة وقربة تقربه بها منه يوم القيامة**».

وهذا الموقف فيه عدد من المسائل والفوائد:

أولا: أم سليم هذه هي بنت ملحان بن خالد بن زيد الأنصارية الخزرجية، واسمها سهلة، وقيل: غير ذلك، واحدة من سادات النساء وفواضلهن، ومن المبشرات بالجنة، عرفت بالحصافة والسداد

(١) (رقم ٢٦٠٣) ورواه ابن حبان في "صحيحه" (٦٥١٤).

والرأي الرشيد، وهي أم أنس بن مالك، وزوجة أبي طلحة، لها قرابة مباشرة برسول الله ﷺ بالنسب أو الرضاع. فهو عليه الصلاة والسلام أحد محارمها (١).

الثانية: أن هذا الدعاء الذي قاله النبي ﷺ على سبيل المداعبة والممازحة لتلك اليتيمة الصغيرة ليس مقصودا بذاته، وإنما هو مما جرت به عادة العرب كقوله: "تربت يمينك" (٢) و "عقرى حلقى" (٣) و "لا أشبع الله بطنك" ونحو ذلك، ولا يقصدون به حقيقة الدعاء وإرادة وقوعه، وإنما هي عادة غالبية العرب يصلون كلامهم بهذه الدعوات، ويجعلونها دعاما لكلامهم.

ومع ذلك خاف عليه الصلاة والسلام أن يصادف شيء من ذلك إجابة، فسأل ربه سبحانه وتعالى ورغب إليه في أن يجعل ذلك رحمة وكفارة وقربة وطهورا وأجرا، مع أن ذلك كان يقع منه ﷺ في النادر من الأزمان (٤).

وبهذا يتبين ــ وهذه المسألة الثالثة ــ أن ما يقع من كثير من الآباء والأمهات من الدعاء على أولادهم أمر منكر، لأن دعاءهم

(١) ينظر: "تهذيب الأسماء واللغات" (٣٦٣/٢)، و "شرح النووي لصحيح مسلم" (٥٧/١٣) و (١٠/١٦).

(٢) ثبت هذا اللفظ في حديث عائشة عندما قال لها رسول الله ﷺ : «**ائذني له، فإنه عمك تربت يمينك**» أخرجه البخاري (رقم ٦١٥٦)، ومسلم (رقم ١٤٤٥).

(٣) وثبت هذا اللفظ في حديث عائشة قالت: أراد النبي ﷺ أن ينفر، فرأى صفية على باب خبائها كئيبة حزينة لأنها حاضت فقال: «**عقرى حلقى**» أخرجه البخاري (رقم ٦١٥٧)، ومسلم (رقم ١٢١١).

(٤) ينظر: "شرح النووي لصحيح مسلم" (١٥٣/١٦)، و "المفهم" (٥٨٥/٦) للقرطبي.

ليس كدعاء النبي ﷺ ، من جهة أن النبي ﷺ جعل الله دعاءه على الناس ــ لو صدر ــ رحمة وطُهْرة لهم، وهذه خصوصية له ﷺ دون غيره، ثم إن دعاء أولئك الناس ليس من قبيل كلام العرب الذي أشرنا لبعض أمثلته، لأن دعاء الوالدين الذي نسمعه هو بالموت العاجل والمصيبة الفادحة والداهية القاتلة، نسأل الله السلامة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم**» خرجه مسلم في "صحيحه"(١).

الرابعة: بيان ما كان عليه النبي ﷺ من التواضع وحسن الخلق، فهو عليه الصلاة والسلام لم يستكثر ممازحة تلك الطفلة الصغيرة ومداعبتها بشيء من الكلام، وقد كان عليه الصلاة والسلام يرى هؤلاء الأطفال اليتامى والربائب في بيوته عند أزواجه، ومن أولئك هذه الطفلة اليتيمة، وكان قد رآها صغيرة، ثم غابت عنه مرة فرآها قد طالت وعَبُلَت ــ كما يقول الحافظ القرطبي، ومعنى عبلت أي ضخمت وابيضت ــ فتعجب عليه الصلاة والسلام من سرعة ذلك، فقال لها ذلك القول متعجبا، ممازحا.

وقد قال بعض أهل العلم: إن قوله ﷺ : «**لا كبر سنك**» بمعنى ألا يكبر سنها كبرا تعود به إلى أرذل العمر (٢)، فتبقى على قوتها

---

(١) (رقم ٣٠٠٩).
(٢) ينظر: "المفهم" (٦/٥٥٦).

ونشاطها مدة حياتها.

وهذا شبيه بما كان مع طفلة صغيرة يقال لها أم خالد، وكانت قد لبثت في الحبشة زمنا أثناء الهجرة، فعرفت شيئا من كلامهم، وهي بنت خالد بن سعيد ــ رضي الله عنه ــ حيث جاءت مع أبيها إلى النبي ﷺ ، وكانت لابسة قميصا أصفر، فقال لها رسول الله ﷺ : «**سنه، سنه**»، قال الراوي: ومعناها بالحبشية: حسنة [(١)].

ثم همت تلك الطفلة أن تعبث بخاتم النبوة الذي بين كتفي النبي ﷺ ، فزجرها أبوها، فقال عليه الصلاة والسلام: «**دعها**» ثم قال رسول الله ﷺ ، بعد أن كساها ثوبا جديدا ــ كما في الرواية ــ : «**أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي**»، فبقي ذلك الثوب أمدا طويلا، وعمرت تلك الطفلة عمرا طويلا ببركة دعائه ﷺ .

والحديث رواه البخاري في كتاب الأدب [(٢)] من صحيحه وبوب عليه فقال: باب من ترك صبية غيره حتى تلعب به، أو قبلها أو مازحها.

ثم قف الآن عند هذا الأدب العالي والخلق الكريم، الذي يرويه جابر بن سمرة ــ رضي الله عنه ــ قال: صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الأولى [يعني الظهر]، ثم خرج إلى أهله، وخرجت معه، فاستقبله ولدان، فجعل يمسح خدي أحدهم، واحدا واحدا، قال:

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٠٧١).
(٢) (رقم ٥٩٩٣).

وأما أنا فمسح خدي، فوجدت ليده بردا أو ريحا كأنما أخرجها من جؤنة عطار، خرجه الإمام مسلم في "صحيحه" [١].

قال الإمام النووي ـــ رحمه الله ـــ : وفي مسحه ﷺ الصبيان بيان حسن خلقه ورحمته للأطفال وملاطفتهم، وفيه بيان طيب ريحه ﷺ ، وهو ما أكرمه الله تعالى.

قال العلماء: كانت هذه الريح الطيبة صفته ﷺ ، وإن لم يمس طيبا، ومع هذا فكان يستعمل الطيب في كثير من الأوقات مبالغة في طيب ريحه لملاقاة الملائكة وأخذ الوحي الكريم ومجالسة المسلمين.اهـ [٢].

المسألة الخامسة: في الموقف الذي صدرنا به هذا الموقف: بيان ما كانت تزخر به بيوت الصحابة من رعاية اليتامى، فقد رأينا أن تلك اليتيمة التي مازحها رسول الله ﷺ كانت في بيت أم سلمة وكانت شديدة العناية بها، وهكذا كانت بيوت أزواج النبي ﷺ ، فقد ثبت أن عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ كانت في حجرها أكثر من يتيم ترعاه [٣].

وهكذا بيت زينب بنت خزيمة، فقد كان لكثرة إحسانها تعرف بأم المساكين.

---

(١) (رقم ٢٣٢٩). وجؤنة العطار هي ما يضع فيه الطيب ويختزنه، فتكون رائحته عبقة متميزة.

(٢) "شرح النووي لصحيح مسلم" (١٥/٨٥).

(٣) ينظر: "الموطأ" (١/٢٥١)، "سنن البيهقي" (٤٠/١٠٨).

وهذه الرعاية لليتامى في العصر النبوي هي عمل بترغيب المصطفى ﷺ في هذا الباب، فهو القائل: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**»، وقال بأصبعيه السبابة والوسطى. رواه البخاري [1]، قال ابن بطال: "حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة، ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك".

وكفالة اليتيم تكون برعايته من جهة الإنفاق وتهيئة الطعام والكساء والدواء وهكذا التربية والتعليم، وفي زماننا هذا اشتدت حاجة اليتامى لقلة الالتفات إليهم، فحق على أصحاب الإحسان أن يقفوا على أحوالهم من خلال جمعيات البر، وهكذا اليتامى في بلاد المسلمين الأخرى الذين صاروا يستجدون أمم الكفار لتخلي كثير من المسلمين عنهم.

والوقوف عليهم يكون من خلال هيئات جمع التبرعات وهيئة الإغاثة ومؤسسة الحرمين وغير ذلك، وهذه المؤسسات الخيرية مهيأ الوصول إليها بحمد الله في جميع أرجاء بلاد الحرمين، زادها الله عزا وتمكينا، وفي عموم بلاد المسلمين إذ لا تخلو من أهل المعروف والإحسان بحمد الله ومنته.

وفق الله الجميع لما فيه الخير.

* * *

---

(١) (رقم ٥٣٠٤ ، ٦٠٠٥).

الفهرس

مقدمة ٥
صفحات من طفولة المعصوم ﷺ.............................. ٧
بشارة الأنبياء ببعثة أفضلهم:.............................. ٧
المولد الشريف ومقدماته: ١٠
رعيه الغنم: ٢٠
مراضع المصطفى ﷺ وحواضنه ٢٣
تاريخ وذكريات.. ٢٣
الرعاية النبوية للطفولة..................................... ٣١
المصطفى ﷺ يمازح يتيمة................................ ٤٤
الفهرس.. ٥٠

